**مدخل**

**نيتشة... سقراط ضد الحياة..الحياة مرض.**

العديد من الحضارات تدخل في انجذاب صحي Santé فيما بينها، عندما تتعرض لأمراض فيزيولوجيا، يكون سببها تلك الأعراض المصحوبة برداءة الحكم على القيم، أين تحاول الحضارة الآيلة للزوال الانجذاب تجاه الحضارة المتفوقة و هذا ما نلاحظه على الدوام، إذ أثر اتصال شعوب متحضرة بأخرى متخلفة، تشرع الحضارة الدنيا وبشكل منتظم في استعارة رذائل و نقائص و عنف الحضارة المتفوقة، و انطلاقا من هذا نشعر بانجذاب يمارس عليها، و لربما هذا ما يمكننا تفسير به ظاهرة سقوط آثينا المقترنة بسقوط و اختلال معايير الحكم. لقد غدت آثينا عاجزة عن إبداع أو على الأقل الإبقاء على عصرها الذهبي الذي ساد أثناء فترة الأيونيين، و الإيليين، و الفيثاغوريين، عصر الحكماء. لم تستطع آثينا الحفاظ على مثل هذا العصر بل دخلت في مرحلة أكثر انحرافا آل بها الأمر إلى التخلف و لقد مثل هذه الحالة أحكم حكماء آثينا، و يظهر هذا في شخص "**سقراط**" أين كانت قضية "**سقراط**" Le problème de Socrate بمثابة الإعلان النهائي عن مرض عضال أصيبت به آثينا، وباء خطير، لقد كانت آثينا آنذاك محتاجة حسب "**نيتشه**" إلى طبيب Médecin يخلصها من هذا الطاعون، لكن و للأسف لم يوجد مثل هؤلاء الأشخاص و إنما وَجَدَت أمامها منتقمين، "**سقراط**" منتقما، هذا الحكيم الذي تنكر لجميل آثينا عليه، لقد تلفظ بأسوأ ما تلفظ به على مدى حياته، و ساهم في انتشار رقعة الوباء داخل آثينا، هذه المدينة التي احترمته، و احتفت به في العديد من المرات إلى درجة أن آلهتها اعتبرته أحكم حكماء آثينا، لكنه و في أحلك أيام آثينا، و في أواخر أيامه راح يعلن عن تفاهته و انحطاطه، "**سقراط منحط SocrateDecadent**" مع إعلائه عن يأسه من الحياة و كرهه لها، الحياة مرض، مرض عضال ، الحياة عديمة القيمة لقد قال ما الحياة سوى مرض عضال "لم يكن "**سقراط**" في حقيقة الأمر إلا قناعا يتستر من وراءه بأخلاق الورع و التقى، لقد كان "**سقراط**" يتظاهر بما لا يضمر، كان يلعب دور أب الوطن و الحكمة، يلعب إلى حد الخداع ، هذا إعلان مفزع و خطير يقول "**نيتشه**".

يرى "**نيتشه**" أن غواية "**سقراط**" جعلت الأغريقي ينسى نبله، لقد أدخل الجدل في الممارسات اليومية لحياة الإغريقي، سؤال السعادة، و الفضيلة و خلاص النفس هي تعبيرات لتناقضات علم النفس، في طبيعتها يوجد الانحطاط، إنه ينقصها توازن في الغرائز(الهدف) و تبدو لحظة "**سقراط**"/"**أفلاطون**"/"**أرسطو**"لحظة شديدة الأهمية في تاريخ الفكر الفلسفي و بالأخص الفلسفة الإغريقية، فهي من جهة شهدت اصطداما جذريا بين المنظومة الشفاهية العريقة في التاريخ الإغريقي، ممثلة بالمرويات الأسطورية و الملحمية، و قد كان قد تجلى في ملاحم "**هوميروس**" و شذرات Aphorismes الإيليين و الأيونيين، و بين المنظومة الكتابية الناشئة لتوها على يد "**أفلاطون**" و **أرسطو**" و من جهة أخرى شهدت أولى ملامح الطغيان الفكري و الاستبداد العقلي، حينما حاول "**أرسطو**" جر كل الإرث الفلسفي الشفاهي داخل نسقه، و طرد كل ما لا يناسب فلسفته، و معه تم ظهور أولى بوادر التفكير الكتابي، لقد حدثت القطيعة الجذرية مع المرويات الأسطورية الملحمية و التصورات الفلسفية الأولى، التي كانت على شذرات الأيونيين و الإيليين، و يبدو أرسطو حسب نيتشه « و كأنه لا يملك عيونا يرى بها حينما يجد نفسه أمام هذه الشخصيات (طاليس، ديمقريط، هيراقليط، بارمنيد...) و بذلك يبدو هؤلاء الفلاسفة الرائعون كأنهم عاشوا دون جدوى أو أن قدرهم كله لم يكن سوى تهيئ الفيالق المتجادلة و الثرثارة، فيالق المدارس السقراطية... » و لم تكن الكتابة بالنسبة إليه أداة للتأمل و التفكير العميق من خلال الانفتاح على أعمال السابقين و إنما كان لها توظيف جد خطير إذ حاول أرسطو أن يخضع آراء متناثرة لسياق ممارية عقلية مختلفة بالإضافة إلى ذلك أعطى لمقتضيات التفكير الكتابي و شروط الممارسة الكتابية و إجراءاتها أن تمارس قهرا و إكراها ضد التأملات الأولى المعبر عنها بصيغ لفظية موجزة و مكثفة. لقد رفض أرسطو السماع إلى إبداعات الإغريق الأولين و في ذلك كان موقفه تجاه التراجيديا موقفا عدائيا، أرسطو أكبر عدو للمأساة، « لقد كان يعتقد أنه تمكن من إيجاد، في انفعالي الخوف و الشفقة، و إذا كان محقا في ذلك ستغدو حينها خطيرة ينبغي التجند ضدها و الاحتياط منها، إن أرسطو مخطئ في حكمه هذا على التراجيديا، إنها على خلاف ذلك الفن الأكثر إثارة و تفعيلا للحياة، إنها نشوة السكر حينما نحياها، إنها إرادة الحياة... » بدا أرسطو و كأنه يخفف من آلام البشر لكنه قام بعمل خطير لكونه أقصى غرائز البشر.

إن الإطلاق الميتافيزيقي سيؤدي في نهاية المطاف إلى نوع من الانسداد لحظة تزامن مفهوم الوجود مع تعيين الحقيقة كتصويب للنظر نحو وجهة المثل، فانبتت مع ذلك تقاليد الميتافيزيقا القاضية بأن جوهر الحقيقة هو المطايفة، لقد تم تعيين الحقيقة و مع "**أفلاطون**" و لأول مرة دائما كمطابقة، و سيحاول "**ديكارت**" الخروج من النفق المسدود الذي وضعته مثل "**أفلاطون**" باعتبارها واقعا لمقياس كل حقيقة لابد إعداد الموجود الذي يتم به وضع هذا الأساس على نحو يقيني.

**نيتشة ..الحضور الهيغلي –الشوبنهاوري.**

فلعل تجربة الشك التي تفضي لدى "**ديكارت Descartes**" أن الكوجيتو هي التي تعين هذا اليقين، و ليس مثل "**أفلاطون**" هذا التعيين الذي يعتبره بمثابة انعدام للشك، هذا اليقين هو إذا يقين من الذات بما هي أنا أفكر Moi qui pense، هكذا يضع الإنسان نفسه قبل كل الأشياء، فهو الذات العارفة على كل الذوات، طالما أن الوعي بالذات سابق على كل معرفة للأشياء، و على كل وعي بها "لقد مكننا "**أفلاطون**" أن نبصر و رفع "**ديكارت**" هذا البصر إلى مستوى البصر بالبصر، لذلك فمهما اتسع تعريف الشيء المفكر لدى "**ديكارت**" ذاته في كل الحالات، يشير إلى الفعالية التي هي موضوع مباشر لإدراكنا فالأنا يتمثل ذاته في كل تمثل للموضوعات . و لعل قراءة نقدية للكوجيطو الديكارتي Cogito تبين كيف أن تأسيس الوجود على الفكر، و الحقيقة على التمثل Représentation هو بمثابة تسليط للمقولة على الوجود و إحلال للتصور محل الكائن الحادث Contingent، فالأنا أفكر إذا أنا أوجد، هو قول يسقط من الحسبان الجسد، و يرى في الروح مركزا للحياة، و منه يكون "**ديكارت**" أضاف إلى الإرث الفلسفي تكريسا آخر لفكرة التطهير و الخلاص، في هذا العالم بإهماله الجسد، لاعتبار هذا الأخير مصدر كل الأوهام و الزيف، و الشرور، و منه أسقط من الحسبان كل "عالم الحياة" و هذا هو الوهم الكبير الذي غرق فيه "**ديكارت**" فيما هو يحاول التحرر من أوهامه، فمعرفة إلى أي مدى يمتد الطابع المنظوري للوجود أو إذا كان له بالإضافة إلى ذلك طابعا آخر، إن كان وجود دون تفسير، دون أي معنى، لا يصير لاـ معنى Non-sens معرفة إن لم يكن كل وجود، من جهة أخرى وجودا تفسيريا بالأساس هذا ما لن يستطيع الكوجيطو الديكارتي تقريره، لا بتحليل جاد، و لا باختيار دقيق لنفسه، لأن الفكر الإنساني لن يفعل شيئا بعد هذا التحليل، غير أن يرى نفسه في أشكاله المنظورية ، و فيها لا نستطيع أن نرى ما وراء زاويتنا..." لقد بدأ يظهر في الأفق ملامح تواطؤ الفكر الفلسفي مع الديني، هذا حال فلسفة "**ديكارت**" و من سيأتي من بعده، إذ غدت الفلسفة هي الأخرى إحدى تعبيرات الانحطاط، و لقد تمثل النقد الكانطي المنفتح و لأول مرة على إمكان القول الفلسفي، هذا التواطؤ بشكل واضح، لم يكن "**كانط**" حسب "**نيتشه**" إلا رجلا دينيا، إنه الوجه الآخر للمسيحية، بإقراره لفكرة واجب الفعل الأخلاقي، و التشريع لأخلاق الإذعان و الخضوع، افعل، اعمل.. إن هذه الأوامر يتضمن أن تقابل لديه بـ"نعم"، هي في الحقيقة "نعم" الحمار لا غير، إن النقد الكانطي هو بمثابة سياسة أخلاقية ترفض الحرب، إنها سياسة تكريس التسوية، قبل الذهاب إلى المعركة يجري تقاسم مناطق النفوذ، و ليس النقد كما يرى "**جيل دولوز**" شيئا و لا يقول شيئا طالما يكتفي بالقول: "الأخلاق الحقيقية ينبغي أن تسخر من الأخلاق، لم يفعل النقد شيئا طالما لم يتناول الحقيقة بالذات، و المعرفة الحقيقية، و الأخلاق الحقيقية و الدين الحقيقي...". مساءلة هامة يطرحها "**نيتشه**" ما إذا كان الفلاسفة الألمان فعلا ألمانا فلاسفة؟ هل وجد شيء ألماني ؟ "نعم" يجيب "**نيتشه**" إن "**هيغل**" بالنسبة إليه فيلسوف جريء، جرأته مدهشة، قام بزعزعة عادات، و سهولة المنطق، هذا العلم الذي لن يكن يمثل بالنسبة إليه منطقا بالمعنى الذي رسخته النظرية المنطقية الأرسطية، المنطق الهيغلي هو في واقع الأمر علم، نقد، إعادة نظر في الممارسة النقدية التي أخفق في تمتين أواصرها "**كانط**".

لقد تخلص "**هيغل**" من الميتافيزيقا التي سادت و لمدة طويلة في الفكر الغربي أين نجده يعلن في كتابه (علم المنطقLogique) إن ما كان يسمى قبل هذا الزمان ميتافيزيقا إنما قد اجتثت من الجذر و الجذع و زال من إحصاء العلوم، إنها محنة و مأزق الميتافيزيقا التي كان "**كانطKant**" قد فرغ من خطها، لم يكن "**هيغل**" إذا إلا هذا الذي حاول أن يؤرخ لبداية النهاية، بداية نهاية الميتافيزيقا، لربما ما حاول "**هيغل**" تجاوزه لدى الميتافيزيقيين التقليديين هو هذا التكرار للميتافيزيقا ذاتها التي أسسها اليونانيون، و لم يعمل الفلاسفة إلا على تكرارها. إن "**هيغل**" لا يكرر و إنما يستأنف الميتافيزيقا من منظور يختلف عما عودت نفسها عليه، لقد سن "**هيغل**" لنا ضربا آخر من التسامح الجذري بين الفلسفات، فليس يوجد داحضا و لا مدحوضا، بل استئناف للأساس و لم يكن الاستئناف إلا مجرد استئناف داخلي للآخر و ليس طردا له، بوصفه لحظة تأملية، و يحب "**هيغل**" أن يضع مهامه هذه في إطار ما يسمى "**النقـد**" لا بالمعنى الكانطي، ذلك أن النقد الهيغلي نقدا أصيلا للصور التي تشكل مواضيع التفكير الميتافيزيقي، إن النقد كان بمثابة حكم يرجع إليه في كل مرة، لدى فلاسفة عصره، حتى "**هيغل**" فإننا لا يمكننا زحزحته من أفق النقد الكانطي بعض الشيء، ذلك أنه أسس نقده الجديد من منطلق النقد الكانطي ذاته الذي يقوم أساسا على المحاكمة المتعالية، في حين حاول "**هيغل**" أن يعطي معنى و مهام أخرى للنقد، جاعلا منه المحرر الجدلي لمضامين الميتافيزيقا، من منظور تعقل تاريخها السري، و يذهب "**هيغل**" إلى درجة تسمية منطقه الجديد بأنه نقدا و ليس ميتافيزيقا و حتى و إن كان بدلا منها "إن خطة "**هيغل**" إنما هي نقد أي تبديل للخطة التي اعتادتها الميتافيزيقا...". الملاحظ أن فلاسفة الميتافيزيقا منذ "**أفلاطون**" إلى "**هيغل**" كانوا محمولين بهوس التمثل، إذ لم يكن هدف الإرادة لديهم سوى موضوعا للتمثل، فما المرئي عند "**هيغل**" إذا لم يتم الاعتراف به من طرف الآخر، و القيام يتمثله كوعي للذات. إن المريض هو الذي يريد تمثيل التفوق بصورة من الصور، فالعبد هو الذي يعمل على إقناعنا بأن نكون عنه رأيا جيدا، يتساءل "**نيتشه**" عن سر قبول فلاسفة الميتافيزيقا بهذه الصورة الزائفة عن السيد التي لا تشبه غير العبد المنتصر؟

في الواقع قد جرى كل شيء بين عبيد أكانوا منتصرين أو كانوا مهزومين..." و الحصول على الاعتراف أو الصراع من أجل الحياة هو الامر نفسه ، لا يرتاح "**نيتشه**" أبدا لمفهوم الصراع. لكونه دوما يرجع إلى الأمور إلى نصابها، و يجعل من منطلقاتها معلومة، لم يكن الصراع أبدا ذلك التعبير الفاعل (Actif) عن القوى، بقدرما كان الوسيلة التي يتغلب بها الضعفاء على الأقوياء لأنهم العدد الأكبر، إن الصراع هو الضامن الوحيد لانتصار العبيد. كثيرا ما قيد الفلاسفة مفهوم الإرادة، فـ"**هيغل**" "لا يتوان على التشديد على الوهم في وضع السيد، لأن السيد حسبه يتبع العبد، لأجل الاعتراف به، الكل يضعون التناقض في الإرادة، و الإرادة في التناقض أيضا...".

لم يكن طموح "**شوبنهاور**" مرتبطا بإنشاء مدرسة فلسفية، لا و لا حتى بناء نسق فلسفي متماسك على منوال فلاسفة عصره، و في مقدمتهم: "**كانط**" و "**هيغل**" و "**شيلينغ**" ...لقد اكتفى "**شوبنهاور**" بالتفلسف و فقط، يتفلسف في ما آل إليه عصره من توتر حال دون السعي من أجل ترسيخ فلسفة نسقية، أين كان يعتقد أن الفلسفات الشمولية، و النسقية كانت السبب المباشر في مثل هذا الراهن، راهن ميزه الانسداد و الإخفاق، فشل مشاريع الأنوار، التي لم تحقق وعودها المأمولة، و التي أعلت من شأن العقل، و نادت بتحرره، فما جلبت في نهاية المطاف إلا الخيبة و اليأس،و الحروب، و كانت الثورة الفرنسية التي قادها "**نابليون (Napoléon)** آنذاك خير تعبير عن هذا الوضع المتأزم، لم تجلب الأنوار إلا متاعب و فضائح أكثر للبشرية، هذا ما خلص إليه "**شوبنهاور**" و هو يتناول بصورة أخص فلسفة "**هيغل**". هكذا حاول أن يشخص راهنه عبر فلسفة مغايرة تحمل رؤيتها الجذرية النافية و بشكل مطلق للحياة و للعالم، لقد أعلن نفيه لكل أفكار سابقيه، جاعلا من فلسفته الناطق باسم إنسانية الإنسان، لقد كانت بمثابة الاهتمام المطلق بالإنسان إذ أوجدت له متسعا عظيما و حاولت تخليصه من هذه الحياة التي سلبت منه كل قواه فكان أن عرف الإنسان في فلسفة "**شوبنهاور**" حضورا مطلقا أين يرمي ذاته في العالم المليء بالآلام، "...إنها إرادة نفي الحياة، و إنها لبطولة ينبغي أن نعجب بها و نحن نقرأ فلسفته، نفي يجرنا و يقودنا نحو العدم...".

لقد حاول "**شوبنهاور**" الوصول إلى العالم بحقائق الأشياء فوقف عند فكرة الشيء في ذاته (La chose en soi ) الذي زعم "**كانطKant )** (أنه حقيقة وراء عالم الظواهر، و إن كان يعترف صراحة في شرحه النقدي لحدود المعرفة الإنسانية، فـ"**شوبنهاور**" يقول: "إننا لا ندرك شيئا في ذاته و لا ظواهر ذلك الشيء إلا في أنفسنا، فبالقياس إلى ما ندركه في أنفسنا نستطيع أن نعيش من بين الموجودات الخارجة عن الأشياء التي لا ندركها إلا عن طريق إدراكنا لظواهرها الواقعة في الزمان و المكان، و من هنا كان في العالم من حيث هو مجموعة من الظواهر، مجموعة من الأفكار، و كان من حيث هو شيء في ذاته أو حقيقة "**إرادة**" **(Volonté)** و العالم إذا كان في أحد جوانبه فكرة كله فهو في جانبه الآخر إرادة كله...". ترغب الإرادة و على الدوام في الحياة و بشكل ملفت الانتباه و تتجلى في الوقت ذاته تحت أشكال الغريزة الجنسية التي لها القدرة على مواصلة و متابعة استمرارية الجنس البشري، هذه الغريزة في الوقت ذاته تضع حدا، و تقصي اللامبالاة و البراءة، إنها الوحيدة كما يرى "**شوبنهاور**" القادرة على أن ترافق الوجود، الحزن و التهيج) agitation ‘L (على مسار حركة الحياة و البؤس، و القلق و الحاجة. لكن ماذا عن تشاؤم "**شوبنهاور**" ؟

إن تشاؤم "**شوبنهاور**" نظرية مؤسسة على افتراض واسع، و هو أن الإرادة في جوهرها شر، و أن العالم في جوهره إرادة، و بالتالي كان العالم شرا، و فلسفته تؤكد اتجاهها نحو الحياة، اتجاها هروبيا، إنسحابيا، إنكاريا، فالحياة في مذهبه شيء ينبغي نفيها، و نفيها معناه السير ضد طبيعة الإنسان و طبيعة العالم، لأن هذه الطبيعة ليست سوى إرادة الحياة "إن حياة الإنسان مع متاعبه اللامنتهية و حاجاته و آلامه يمكننا النظر إليها كتفسير و شرح مسهب (Paraphrase) لعقل الأجيال، أي تأكيد و إثبات عزم و تصميم إرادة الحياة، و إن هذا الإثبات يرجع أيضا إلى هذا الدين، الموت، القلق و الاضطراب تجاه الطبيعة..." لا ننكر هاهنا الإعجاب المطلق من قبل "**نيتشه**" بفلسفة "**شوبنهاور**" الذي تعرف على فكره مباشرة عبر كتابه "**العالم كإرادة و كتمثل**" الذي قدمه له إياه "**فاغنر**"(**Wagner)** الذي كان بدوره هو الآخر ممثلا لفكر و أدب "**شوبنهاور**" الذي اعتبره أعظم فيلسوف منذ "**كانط**" و الذي أخذ منه مفهومه الأساسي، النفي لإرادة الحياة، حيث وجد فيه الخلاص المطلق، هكذا كان "**فاغنر**" و هكذا كان "**نيتشه**" بعض الشيء، إلى أن أخذ قراره النهائي في الانفصال عن فلسفة "**شوبنهاور**" و عن موسيقى و فن "**فاغنر**".

"**فاغنر"** كان بالنسبة لي قدرا يقول "**نيتشه**"، أن أحب بعد "**فاغنر**" أيا كان، كان انتصارا، ربما لا أحد ارتبط بشكل أخطر و أكثر حيوية بـ"**فاغنر**" لا أحد احتاج للكثير من الصلابة ليقاومه، لا أحد اغتبط لكونه تحرر منه أكثر مني...". فلم تكن بالنسبة لـ"**نيتشه**" الإرادة هي ما يريده و ليس إرادة الحياة ما يبغيه، و إنما الحياة وحدها، الحياة إرادة، و ليست الإرادة حياة، إذ ما عثرنا يوما يقول "**نيتشه**" في أنشودة القبر Le chant de tombeau على الحقيقة في إرادة الحياة، لأن مثل هذه الإرادة لا وجود لها، و ليس العدم Le néant إرادة، كما أن المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة، لكونه يعيش "فما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لا إرادة الحياة..." إنها اللحظة الهامة التي عينها و أرادها "**نيتشه**" لحظة إعلانه الحرب ضد ميولات رجال الدين Théologiens و ردم ميولات رجال الدين ، لم يكن "**شوبنهاور**" هذا المربي إلا الصورة المقابلة لرجل الدين المكرس لأفكار المسيحية القائمة على التكفير عن الخطيئة.